لمحات من تاريخ الأندلس – عصر بني الأحمر–

Glimpses of the history of Andalus "the era of Beni Al-Ahmar"

أحمد لعياضي، باحث دكتوراه.

جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية – الجزائر–.

تاريخ الإرسال:2019/11/06 تاريخ القبول: 2020/11/20

ملخص:

تعدّ الأندلس مهد الحضارات العربية والغربية، أثبت العرب وجودهم فيها زهاء الثمانية قرون كوّنوا خلالها حضارة، وأقاموا فيها دولة عظيمة. ومن خلال هذه الدراسة نسعى إلى التطرق لبعض الجوانب الحياتية في عصر بني الأحمر، مرورا بفترات القوة والضعف، وما شهدته الأندلس من تطور علمي وازدهار حضاري مس مختلف المجالات، الاجتماعية والاقتصادية، الفكرية والأدبية، وإضاءة بعض الفترات التي شهدت صراعات عقائدية وعسكرية بغية الوصول إلى سدّة الحكم الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، بني الأحمر، القوة والضعف، الصراع، السلطة، العقيدة.

Abstract:

Al-Andalus is the cradle of Arab and western civilizations. arabs have proved their existence there for about eight centuries, during which they created a civilization and established a great state in it. Through this study, we seek to address some aspects of life in the Bani Al-Ahmar era, through times of strength and weakness, and the scientific and cultural development that Al-Andalus has witnessed in various fields, social and economic, intellectual and literary, and illuminating some of the periods that witnessed ideological and military conflicts with the aim of reaching the Andalusian government.

Keywords: Andalus, Bani Al-Ahmar, strength and weakness, conflict, power, doctrine.

.

مقدّمة:

شهدت الأندلس خلال فترة بني الأحمر سياسة اتّسمت بالتّغير والمراوغة، حيث يلجئون إلى المهادنة والمصالحة حينا، وإلى الحرب والغزو حينا آخر، وهذا نّتيجة للظّروف القاسيّة الّتي كانت تمرّ بها الأندلس آنذاك من تكالب نصراني، واضطراب عنيف داخل القصر الحاكم. إضافة إلى التغيّر المستمر في المشهد السّياسي، حيث تعاقب عليها عدّة ملوك ذوي نزعات سياسيّة مختلفة. كما كانت الأندلس موطن لعدّيد الأجناس البشرية ذوي عقائد وعادات مختلفة، من عرب وبربر وصقالبة، ويهود ونصارى، وقد أفرز هذا التنّوع في البنية الاجتماعية، عادات وتقاليد مختلفة عبّرت عن مستوى التّطور والتّحضر الّذي وصلت إليه الأندلس.

لقد استطاع الأندلسيون منذ البداية أن يؤسّسوا لمفهوم حضاري اقتصادي وتصوّر منطقي عقلاني حول كيفية التّعايش والرّقي، يقوم في أساسه على ضرورة قيام كل فرد بمسؤوليته وواجبه نحو وطنه. فشهد الاقتصاد الأندلسي نموا لاعتماده على الزّراعة والتّجارة والصّناعة. أمّا الجانب الفكري، فقد شهدت الأندلس في ظلّ بني الأحمر حركة فكريّة وثقافيّة واسعة النّطاق، حيث حفلت بعديد العلوم والمعارف، من هندسة ورياضيات وفلك وطب، فضلا عن الحركة الأدبيّة الّتي كانت من أبرز وجوه الحركة الفكريّة في المملكة، حيث حفل العصر بعديد الأسماء الأدبيّة والمصنّفات، لتظل الأندلس مهدا للحضارات العربية والغربية.

2. الحياة السياسية: لقد أثبت العرب وجودهم في الأندلس زهاء الثمانية قرون كوّنوا فيها حضارة، وأقاموا فيها دولة عظيمة، تميّزت في بدايتها بالقوّة والسّيادة خاصّة في عهد الوّلاة والخلافة الأموية.وما فتئت الخلافة الأموية في السّقوط حتّى قامت على أنقاذها دولة ملوك الطوائف، لتدخل الأندلس في مرحلة انتقالية جديدة إتّسمت فيها بالضّعف، فقد سقطت طليطلة على عهدهم سنة ﴿478هـ/1085م﴾، وبذلك انكسرت أسطورة التفوّق السّياسي للعرب في الأندلس على عهد الدولة الأمويّة، لتشتعل نار الفتنة والانقسامات وتهزّ أركان الدولة، وتضعف قوّتها. فقد توالت الحصون والقلاع في السّقوط، وبين مدّ وجزر، ونصر وهزيمة، إلى أن جاءت موقعة "**الزلاقة**" ﴿479هـ/1086م﴾ بقيادة يوسف بن تشفين وموقعة "**الإرك**" سنة ﴿593هـ/1196م﴾ بقيادة يعقوب المنصور أمير الموّحدين، الّذي كان له أثر طيّب ودور فاعل ومساهمة جبّارة في ترسيخ قدم المسلمين بهذه البقعة. غير أنّ النّصر الّذي يصنعه الطّرف الخارجي حتّى وإن كان مسلما سيكون حبله قصير، ما لم يجد الرغبة والنّية الصّادقة في الدّفاع عن الأوطان والدّيار متأصلة ومتجذّرة في ساكنيها وحكّامها، ولأنّ هذه النّقطة ظلّت كاللّعنة تطارد حكام الأندلس منذ قيّام الدّولة حتّى سقوطها، فقد سجّل لنا التّاريخ مواقع عديدة وحروب حاسمة كان النّصر فيها مستوردا من "المرينّيين"، أو من العدوة المغربية. وذلك أنّ الأندلسيين وحدهم لم يكونوا قادرين على الذّود عن وطنهم لإنشغالهم باللّهو والصّراع حول الكرسّي، فلم تمض ستة عشر سنة حتّى جاءت هزيمة "**العقاب**"، الّتي كما قال: عيسى بوزيان "تعدّ إيذانا برحلة الإيّاب من الأندلس وبداية نهاية المسلمين بها"[1]. وكان ذلك نتيجة مصافّاة محمد النّاصر الإفرنج سنة ﴿609هـ/1212م﴾، وتوالت النّكبات والأزمات ولم يأت منتصف القرن السّابع للهجرة حتّى كانت ولايات الأندلس الشّرقية والوسطى قد إلتّحفت

النّصرانية دينا لها، والإسبانية اسما، ولم يبقى سوى بضع ولايات صغيرة في طرف اسبانيا قد آثرت البقاء تحت لواء الدولة الإسلامية، غرناطة وإشبيلية. وبذلك تقلّص ظلّ العرب في الأندلس وانحصر في غرناطة الّتي اختزلت فيها بعد الأندلس بثقافتها وعلومها وعاداتها، وغدت مستّودعا للعبقرية الأندلسية وملاذا آمنا للفّارين من الغزو الإسباني. ومثلت ذلك الصراع القديم بين إسبانيا النصرانية، والأندلس المسلمة العربية، وذلك بعد أن سقطت المدن والقلاع الأخرى في يد النّصارى. واستفردت هي بالشموخ والاستقلالية وحافظت على طهارتها فلم تدّنسها أقدام الإسبان مدّة قرنين ونصف من الزمن. ساعدها في ذلك علاقاتها الطيّبة مع "المرنيين" الذين لم يأل جهدا في معاونتهم ومساعدتهم في الظروف الحالكة بالجند والسلاح، فقد كان هذا دأبهم ردحا من الزمن، أضف إلى ذلك الموقع الإستراتيجي الحصين، واستّماتة أبناءها واللّاجئين إليها في الدّفاع عن حياض دولتهم، فضلا عن السّياسة الرّاشدة الذّكية الّتي انتهجها ملوك بني الأحمر والّتي تتّسم بالحكمة والدّهاء وإعمال العقل والمراوغة، يلجؤون إلى المهادنة والمصالحة وذلك حين يتبين الخطر، وينعدم المنقذ، وتوصد الأبواب درءا للكثير من المخاطر، وجلبًا للكثير من المنافع، فيغزون حين تسمح لهم الفرصة وحين يوقنون بنصر مؤكّد. فسياستهم هذه كانت نتيجة الظروف القاسّية الّتي كانت تمرّ بها الأندلس آنذاك من تكالب نصراني، واضطراب عنيف داخل القصر الحاكم، المطالب آنذاك بالتصدّي للصّراعات الدّاخلية على السّلطة والضرب بيد من حديد على كلّ من يثير الفتنة ،وفي الطرف الأخر التصدّي للنّصارى والحفاظ على الدّولة بكلّ الطرائق والوسائل، كلّ ذلك للإطالة في عمر المملكة، وقد تعاقب على غرناطة عدّة ملوك، منهم بنو الأحمر الّذين استلموا الحكم من الموحدين، وورثوا عبئا ثقيلا وبذلك دخلت الأندلس مرحلة جديدة هي مرحلة بني الأحمر.

1.2. مرحلة التّأسيس :

***محمد الأوّل:** يعدّ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجى الأنصاري، المعروف بابن الأحمر لحمرة شعره[2] والملقّب بأمير المسلمين، المؤسّس الفعلي لدولة بني الأحمر في غرناطة، فقد تولّى مقاليد الحكم فيها بعد أن دعاه ابن خالد، جدّ بني خالد في غرناطة، وكان يومئذ بجيّان فبادر إليها في أخريات رمضان من عام ﴿635هـ/1238م﴾[3] وعقدت له البيعة فيها. ومنذ ذلك أصبحت غرناطة عاصمة دولته ومقرّ حكومته. "فقد كان ثغريا شهما أيدا، عظيم التجلّد رافضا للدّعة والرّاحة"[4].

فلم يكد يستقرّ في عاصمته الجديدة حتى توجّه إلى "المريّة" محاصرا لها أمدا طويلا، انتهى بعقد صلح بينه وبين أبي عبد الله محمد بن الرميمي[5]، على أن يسمح له بركوب البرّ بماله وولده. لتدخل "مالقة" بعد ذلك تحت كنفه طائعة مبايعة له في عام ﴿636هـ/1239م﴾. وبامتلاكه لهذين المنائين الهامّين استطاعت غرناطة أن تقيم تجارة نشطة مكّنتها من الصّمود أمام التّكالب الإسباني ردحا من الزمن. وقد اتّسمت سياسة ابن الأحمر الداخلية والخارجية منها بالاضطراب، فعلى الصّعيد الدّاخلي واجهته الكثير من العقبات والأزمات، فقد وقف في وجهه أصهاره من بني "اشقيلولة" بعدما كان لهم دور بارز في إقامة الدّولة النّصرية، على غرار أزمة المال التّي اضطرته إلى مصادرة أموال أمراء دولته، فلقد فعل ذلك مع أميره في "المرّية" محمد بن عروس،

ودخوله في معاهدات ومبايعات[6] مع أطراف عديدة، حتى يؤمّن المال اللّازم لإقامة صرح دولته وتأمين الغذاء لسكان دولته، وتحصينها بالحصون والقلاع وإعداد الجيوش. أمّا على الصعيد الخارجي فأقام هدنة طويلة الأمد مع ملك قشتالة فرناندو الثالث، في عام﴿643ه/1245م﴾، بعد إدراكه لقوّة مملكة "قشتالة" واستحالة نصره عليها لفتوة دولته وحداثة نشأتها. ومن نتاج هذه المعاهدة أن أصبح أسيرا في البلاط القشتالي، يأتمر بأمرهم وينتهي بنواهيهم، ويعلن لهم الطاعة والولاء بدفع الجزية والمشاركة في الحروب بمال وأرواح المسلمين، فقد ساهم في الإطاحة "باشبيلية" في ﴿3شعبان عام 646ه/1248م﴾، وقد عقد البيعة لولي عهده عام اثنين وستين وستمائة[7] واستدعى القبائل للجهاد. وقد وفته المنيّة بعد أن سقط على صهوة حصانه عام 29جمادي الثّانية واحد وسبعون وستّمائة، ليكون بذلك قد أضفى الطّابع الملكي على دولته بعد أن ورّث ابنه محمدا على حياته .

***محمد الثاني ﴿671ه–701ه/1272م–1302م﴾**:إعتلى محمد الثّاني الملّقب بالفقيه ثاني ملوكهم خلفا لأبيه "وقد عرف عنه الصرامة والحزم والدّهاء وطول الحكمة وتملّئ التّجربة"[8]. وبذلك استطاع أن يتصدّى للفتنة، وأن يستردّ بعض الحصون والقلاع كمدينة "قيجاطة" التي نازلها وأخذ بمخنقها عام ﴿695ه/1298م﴾، فعظم ذكره بين النّاس وحسنت سيرته، حتّى توفاه الله في مصلاه سنة ﴿701ه/1302م﴾، وتولى بعده الحكم ابنه محمد الثّالث المخلوع .

***محمد الثالث المخلوع ﴿701ه–708ه/1302م–1308م﴾**: حدثت على عهده أحداث عظيمة واضطراب الحكم وكثرت الفتن[9]، يغلب على خلقه الفضاضة والقسوّة، ممّا حدا بكبار الدولة أن يكيدوا له شرّ مكيدة تكون سببا في خلعه وهلاكه، ولقّد تم لهم ذلك بعد أن أغروا أخاه أبا الجيوش نصر بالثّورة عليه، ففعل ذلك في عيد الفطر عام ﴿708ه/1308م﴾، ليجبره على توقيع خلعه بنفسه أمام حضور الفقهاء، لينقل بعدها إلى مدينة غرناطة الّتي توفي بها عام ﴿713ه/1314م﴾، بعد أن قضى خمسة أعوام في الأسر بالمنكب، وكان عهد ئذ ضرير البصر[10]، ليعتلي الحكم بعده أخاه أبو الجيوش.

***أبو الجيوش ﴿708ه–722ه/1308م–1322م﴾**: هو نصر بن محمد ابن محمد ابن يوسف ابن نصر يكنّى أبا الجيوش "كان فتى ملأ العيون حسنا، وتمام صورة دمث الأخلاق ليّن العريكة عفيفا مجبولا على طلب الهدنّة"[11]، فقد كانت أيّامه كما شاء الله أيّام نحس مستمر شملت المسلمين فيها الأزمة وأحاط بهم الذّعر[12]. فعل عهده إحتل فرناندو الرابع الجزيرة الخضراء في﴿21 صفر عام 709ه/1309م﴾، وجبل الفتح[13] وأخذ بمخنقه في نفس العام، وفي الوقت نفسه كانت "المريّة" محاصرة من طرف خايمي الثاني ملك "أرجونه"، غير أنّها نجت من ذلك الحصار بصعوبة شديدة. ومافتئ أهل الأندلس ينعمون بالسّلم حتّى لاحت في الأفاق آثار فتنة عظيمة، كان سببها توقيع أبي الجيوش لمعاهدة سّلم مع ملك قشتالة. إلتزم فيها بدفع الجّزية، ما أغضب أبا سعيد، فقدم ولده أبا الوليد إسماعيل للملك وبدأ خوض الحروب ضد أبي الجيوش، حتّى أخرجه إلى "واد آش"، وبقي فيه حتى وفته المنيّة عام ﴿722ه/1322م﴾. ليقلد الحكم في غرناطة أبا

الوليد إسماعيل، وبذلك تنتهي المرحلة الأولى التّأسيسّية، وتدخل الأندلس مرحلة سياسية جديدة .

***أبو الوليد:** هو أبا الوليد إسماعيل حفيد إسماعيل أخو محمد ابن الأحمر الشّيخ المؤسس، على عهده دخلت الأندلس مرحلة القوّة والتّألق، فقد أجرى الله على يديه الفتوحات، فكان كما قال ابن الخطيب"غرّة في قومه ودّرة في بيته وحسنة من حسنات دهره"[14].

فلقد كرّ على النّصارى في عديد الحروب والمعارك، فنازل العدوّ على مدينة "سبتة" وأخذ بمخنقها في ﴿724هـ/1324م﴾، وصد الهجوم الضّخم للقشتّاليين على "غرناطة"، بعد أن قتل الأميرين القشتاليين في مروج غرناطة "دون بيدرو" و"دون خوان"، ويطلق على هذه المعركة موقعة "**المرج**" كان ذلك سنة ﴿719هـ/1320م﴾، ومن نتائجها أن إستردّ المسلمون بعض المدن الّتي كانت على يد القشتّاليين كبسطة، و"أشكر" بعدما دب النّزاع في البّلاط القشتّالي على العرش، وبعد عودته من هذا النّصر قتل على باب قصره على يد ابن عمّه محمد بن إسماعيل.

***أبو عبد الله محمد الرابع ﴿725هـ-732هـ/ 1325م-1332﴾**: تصفه المصادر بأنّه كان رجلا شجاعا مقدّاما قامت على عهده أحداث كثيرة، لعلّ من أعظمها تلك الفتنة العظيمة بين وزيره محمد ابن أحمد المعروف، وشيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن العلاء واستغلال القشتاليين لها في الإغارة على بعض الحصون والقلاع ﴿PAUM -AY- olveva AMONTE-ALHAKUIM﴾، وكاد يكون لهذا الخلاف أبعاد أكبر خطورة لولا تدارك السّلطان للأمر وعقده الهدنة مع الخارجين، عليه ليتّجه إلى بني مرين كالعادة يطلب المدد والعون، فأكرمت وفادته وقضيت حاجته، ونازل جبل الفتح مع بني مرين وأخذ بمخنقه في ﴿12 ذي الحجة 733هـ/1333م﴾، ليتّجه صوب غرناطة بجنده ظافرا غانما فيقتل في الطريق بتحريض من بني العلاء.

2.2. مرحلة القوة والإزدهار: تولىّ الحكم في بداية هذه المرحلة أبو الحجّاج يوسف الأوّل بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف ابن نصر الأنصاري الخزرجي ﴿732هـ-755هـ/1332م-1355م﴾ فقد شهدت غرناطة على عصره تطوّرا ملحوظا ورفاهية في العيش لما كان يوليه من أهمّية لإنشاء المصانع والحصون والقلاع، فقد بنى الصّور العظيم حول "ربض البيازين"، وكان يقوم بتفقد أحوال شعبه بين الفينة والأخرى. وعلى عهده ظهر الطاعون الذي أودى بحياة الكثيرين من علماء الأمّة وساستها ورجال دينها، نذكر منهم على سبيل الذّكر لا الحصر، أبا الحسن بن الجّياب أستاذ ابن الخطيب[15]. ووقّع معاهدة مع ملك قشتالة عام ﴿734هـ/1334م﴾، الّتي لم تدم طويلا ليستأنف الصّراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، و"قشتالة" و"أرجوان" و"البرتغال" من ناحية أخرى، حول السّيطرة على جبل طارق[16]، وتوفي يوسف الأول قتيلا بيد رجل ممرور في ﴿01 شوال 755هـ/1353م﴾. وخلفه ابنه محمد الغني بالله ﴿755هـ-760هـ/1353م-1358م﴾-﴿763هـ-793هـ/1361م-1391م﴾ حكم غرناطة على فترتين، وفي عهده توطّدت العلاقة بين غرناطة وفاس، ودخل في حلف مع المغرب وقشتالة. حيث ساعد هذه الأخيرة بأسطول حربي وسمح له

باستخدام قواعده البحرية الغرناطية في حربه على "أرغوان"، وفي خضم هذه الظروف وقع انقلاب في مملكة غرناطة أدى بخلع محمد الخامس وتولّية أخيه ابن الوليد إسماعيل الثّاني مكانه في رمضان ﴿760هـ/ 1358م﴾ بعد أن فرّ محمد الخامس لاجئا إلى المغرب[17]. ومافتئ الأمر يستقرّ للسّلطان الجديد حتّى قام انقلاب على السّلطة أودى بالسّلطان أبا الوليد إسماعيل الثّاني في ﴿شعبان671هـ/1272م﴾. فخلفه سعيد محمد البرميخو، ولكن ما لبث الأمر حتى استرجع محمد الخامس سلطته على غرناطة بمساعدة "بيدرو القاسي" ملك قشتالة، ولكن سياسة المراوغة التي عرف بها بنو الأحمر جعلت محمد الخامس يقيم حلفا مع ملك البرتغال، وسلطان المغرب لاسترداد الجزيرة الخضراء والهجوم على قشتالة[18]، وكان له ذلك، حيث سقطت في أيدي المسلمين عام ﴿770هـ/1369م﴾، لتنتهي تلك الأحداث ويصفو الجوّ بين الأطراف المتصارعة "قشتالة"،"غرناطة"،"أرغوان"، "المغرب" بعقد مصالحة دائمة في عام ﴿771هـ/1370م﴾. وتوفّي السّلطان محمد الخامس سنة ﴿773هـ/1372م﴾.

3.2. مرحلة الاضمحلال والسّقوط: بعد وفاة السّلطان محمد الخامس تعاقب على الأندلس سلاطين ضعاف مهوسون بالحكم يكيد بعضهم لبعض، وقامت فيهم الكثير من الفتن والحروب، وقتل الأخ أخاه والولد أباه، ودخلت غرناطة في زوبعة يصعب الخروج منها، ودخل كلّ طرف في نزاع مع الطّرف الأخر، ولكلّ منهما قوى تقف وراءه بكلّ أنواع الدّعم المادي منه والمعنوي. من ذلك ما حدث بين السلطان أبي الحسن ﴿887هـ/1492م﴾ وزوجته عائشة وولديها أبو عبد الله محمد ويوسف، وفرارهما إلى "واد آش" وخروجهما على طاعة والدهما السّلطان، ليدخلا معه في معارك ضارية انتهت بملك أبي عبد الله لغرناطة، وقتل أخيه يوسف ونفي أبيه إلى مدينة "بسطة". وكلّ ذلك من وراء "شياطين الإنس الّذين صاروا يوسوسون لأمّهما ويخوّفونها عليهما من سطوة أبيهما، ويغوّونها مع ما كان بينه وبين مملوكة أبيهما الرّومية ثريّة من الشّحناء"[19]. هذا الصّراع سيكون أحد الأسباب الرئيسيّة في سقوط الأندلس. وفي سنة ﴿888هـ/1493م﴾ وقعت موقعة "**اللّسانة**" الشّهيرة[20]، الّتي انهزم فيها المسلمون شرّ هزيمة بقيادة أبو عبد الله محمد بن علي، بعد نصر مظفّر كان له على بلاد الروم، فقد غنم فيها الغنائم الكثيرة، وهام راجعا إلى غرناطة مرفوع الهامة. وبينما هو كذلك أغارت عليه حاميّة نصرانيّة، فاستحال النّصر هزيمة. وأسر محمد بن علي ضمن من أسر، واستولى النّصارى فيها على الكثير من الخيل والسّلاح والمتاع. وكان لذلك الحادث أثر عظيم في نفوس الغرناطيين، فهي القشّة الّتي قسمت ظهر البعير، والسّبب الرّئيس، لأنْ تسقط غرناطة بعد ذلك طريدة سهلة في يد قنّاص يحسن التّموقع واستغلال الفرص. فلقد استغلّ القشتاليون ذلك وأملوا على أبي عبد الله الصّغير شروطهم وأطلقوا صراحه، ليدخل هذا الأخير في صراع عمّه "الزّغل" الّذي تربّع على عرش غرناطة ﴿890هـ/1485م﴾، بعد وفاة أخيه السّلطان، لكن الزّغل مافتئ أن استجاب للعروض المغرية من الإسبان، فباع الأندلس مقابل حفنة من المال دفعها له القشتاليون، "فلقد زعم كثير من الناس أنّ الأمير محمد بن سعيد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه القرى والبّلاد الّتي كانت تحت

طاعتهم وقبضوا منه ثمنها وذلك، على وجه الانتقام من ولد أخيه الأمير محمد بن علي"[21]. وكم كانت الصّفعة قويّة على غرناطة، فقد قطعت علائقها وبقيت في انتظار أجلها المحتوم صابرة محتسبة، في حين فرّ الرّغل هاربا إلى "فاس"، أين قام سلطان المغرب بوضعه في السّجن، ثم صادر أمواله وسمل عينيه[22]. وخلا الجوّ لأبي عبد الله الّذي رفض تسليم غرناطة، ودخل في صراع مع فرناندو الّذي أقدم على حصار غرناطة في عام ﴿896هـ/1491م﴾، وأفسد زرعها وبنا بجوارها مدينة أسماها "سانتا"؛ أي الإيمان المقدّس. وهو يقاتل المسلمين قتالا شديدا بخيله ورجله، عسى أن يجد المنفذّ إليها، والمسلمون في ذلك تنالهم أيدي العصاة بذلّة وهوان، فعظم القتل يومئذ واشتدّ البلاء، وبقي المسلمون على ذلك سبعة أشهر كاملة حتّى أنهكهم الجوع والتّعب، والنّصارى لا يبغون عن غرناطة حولا. ولما رأى كبار غرناطة وأشرافها ضعفهم واستحالة صمودهم، اجتمعوا بسلطانهم محمد بن علي وأخبروه الخبر، فقال: "انظروا ما يظهر لكم وما تتّفقون عليه من الرّأي الّذي فيه صلاحكم"[23]، وسلّمت الأندلس إلى ملك الروم في ﴿897هـ/1492م﴾، فدخل قصر الحمراء يختال مرفوع الهام، بعد أن وقّع معاهدة للمسلمين يضمن لهم فيها الأمان[24].

إبك مثل النّساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

3. الحياة الإجتماعية والإقتصادية: كان للحياة السّياسية في مملكة غرناطة الأثر الكبير والعميق في الحياة الاجتماعية هناك، فقد كانت هذه المملكة على صغر رقعتها ملجأ كلّ الأندلسيين المغلوبين وموطنهم الجديد بعد أن سقطت مدنهم بيد الإسبان، فلقد ضمّت أجناس من البشر ذوي عقائد عديدة وعادات مختلفة من عرب وبربر وسقالبة، وكانت تضمّ كذلك عنصران آخران من أهل الذّمة هما : اليهود والنّصارى، حتّى غدت غرناطة "ملجأ لرجال السّياسة الإفرنج، ونذكر على سبيل المثال"دون فيليب" و"دون نونيو" "[25]، أضف إلى ذلك الجّاليات المسلمة التّي وفدت على الأندلس من "الهند" و"خرسان" و"الفرس". فأمّا العرب فكانوا يمثّلون الغالبية العظمى من سكان غرناطة، فمنهم النزاريون والقحطانيون، وقد عدّد بن الخطيب الأنساب العربية الّتي سكنت غرناطة منها:

القرشي، والأموي، والأنصاري، والمخزومي، والخزرجي، والقحطاني .

وقد وفَد العرب على الأندلس منذ الفتح ﴿92هـ/711م﴾، عبر طوالع منها طالعة موسى بن نصير الذين يعرفون باسم**"البلديّين"**[26]، وطالعة بلج بن بشر بن عياض القشري الذين أطلق عليهم اسم**"الشّاميّين"** عام ﴿125هـ/742م﴾، وطالعة أبي الخطّار. "لقد سكن العرب منطقة ضيّقة على الشواطئ الشّرقية والجنوبية، ثم سهل قرطبة لما لها من تشابه مع بلادهم في المشرق"[27]. وأمّا البربر فهم ينتمون إلى قبائل مختلفة متنافرة، هاجرت إلى الأندلس اختيارا من شمال المغرب، حيث كانوا يتوقون للعيش في الأندلس لما فيها من خيرات ورغد، وقد كان لهم دور هام في فتح الأندلس، فجيش **طارق بن زياد** كان جلّه من البربر، وقد ذكر **ابن خلدون** في مقدمته، القبائل الّتي دخلت الأندلس في جيش طارق، وهي أربعة: مطغرة ومديونة ومكناسة وهوّارة، وكلّها زناتية، ويضيف بن حزم قبائل أخرى وهي: "مضيلة وملزوزة ونفرة وأروبة ومصمودة"[28]. وقد اختاروا "المناطق المرتفعة والجبليّة

نذكر منها: عرمونة ورندة وشندونة ومالقة، وسفوح جبل شيلير بغرناطة مقرّ إقامة لهم"[29]. وقد ازداد عددهم على أيّام محمد الثاني ومحمد الخامس اثر انخراط جماعات منهم في صفوف الغزاة، حيث اشتّهرت من البربر أسماء لامعة في الإدارة والجيش والشرطة والحكم. وأمّا النّصارى فحرّية المعتقد التي كفلها لهم الإسلام جعلتهم يتمتّعون بحضور مميّز في العالم الأندلسي فلهم كنائسهم وشعائرهم، فكان منهم الجنود والمسافرون والتّجار. "وقد عرفنا أن أفراد الحرس الملكي كانوا على أيّام محمد الخامس من النصارى الّذين تطوّعوا لحماية السلطان بعد تقبّلهم للإسلام"[30]، وتشير المصادر الّتي تحدثت عن الأندلس أنّ: "قسما من النّصارى دخل البلاد عن طريق الأسر، وذلك نتيجة الكمائن والحروب والغزوات، وتوزعوا في جهات المملكة، وبالأخص العاصمة و"رندة" و"مالقة" و"المريّة"، وكانوا يكلّفون بأشغال متنوّعة. فالأسيرات كنّ يخدّمن في البيوت وبعضهن كنّ حضيات لدى أسيادهم. وأمّا الأسرى فكانوا يستخدمون في أعمال متنوعة منها طحن الذرى وصنع الأقفاف وقطع الخشب، وتسخين الحمامات. أمّا في المناطق الرّيفية فكان الأسرى يعملون في الأرض ورعاية المواشي وتشغيل الطواحين"[31]، كما كان لهم دور بارز في التّجارة، فقد أسهموا في تنشيط حركة المرفأ وبعث النّشاط الاقتصادي على نطاق واسع، فلقد قويت العلاقات التّجارية بينِ "إيطاليا" والدّولة النّصرية. حيث كان لرجال الأعمال الحرّية في التّجارة داخل مملكة غرناطة، على أن يدفعوا الضرائب المتّفق عليها. ومن هذا نصل إلى أنّه كان للنّصارى حظّهم في الحياة العامّة والخاصّة، مشتركين فيها في إطار السّماحة الّتي ظلّلت المجتمع الأندلسي، وبعدهم عن التعصّب المقيت.

وأمّا اليهود فقد كانوا قبل مجيء الإسلام إلى الأندلس مضطهدين من قبل القوط والمسيحيّين "في أنفسهم، وفي دينهم، وفي أحوالهم الشخصية وأمورهم العامّة"[32]، ولكن المسلمون عكس ذلك، فقد وثقوا فيهم فتركوا لهم حرّية العقيدة وحرّية التّنظيم الدّاخلي، حيث تمركز أغلبهم في غرناطة حتّى أضحت تسمّى "غرناطة اليهود"، وكانوا أصحاب تجارة وسفر يطلبون البضائع في كلّ بقاع الدنيا "أمّا على أيّام بني الأحمر، فقد عرفت جماعات اليهود حقبة طويلة من الهدوء بفضل رعاية الحّكام لشؤونهم وتأمين مصالحهم. وقد جعل بنو نصر عليهم عينا ساهرة حالت دون قيامهم بأيّة إنتفاضة معادية وعوملوا كسائر أهل الكتاب والذّميين الّذين أمّن الإسلام حمايتهم"[33]. وقد جعل لهم لباسا خاصا بهم يميّزهم عن العامّة، حتى يعطوا حقّهم في المعاملة العادلة التي ضمنها لهم الدّين الإسلامي بتعاليمه وتشريعاته. فقد أخبرنا لسان الدّين بن الخطيب أنّ "أبا الوليد إسماعيل الأوّل أجبرهم على وضع شارة تميّزهم عن المسلمين، فيقول: وأخذ يهود الذمّة بالتزام سمّة تشهرهم وشارة تميّزهم، ليوفوا حقّهم من المعاملة الّتي أمر بها الشّرع...أمّا النّساء فكنّ يعلقنّ بأرجلهنّ جلاجل صغيرة"[34]؛ وهذا ما أعطى ثماره سريعا، فقد نبغ فيهم عدد غير قليل في شتى المجالات، فبرز منهم الطبيب "صمويل بن نغزالة"، "وإبراهيم الترتار"، طبيب محمد الخامس، وفي التّرجمة نجد "إسحاق بردونيل"، وصهره "بودا" مترجمي أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر. وتحدّثت المصادر عن وصولهم إلى مراكز صنع القرار، وممارستهم للعديد من النّشاطات الأخرى.

والملاحظ "أنّ هذه المجتمعات الغير متشابهة من البشر ما لبثت في ظلّ الحضارة الّتي أطلّت على الأندلس

بجهود الحكام العرب، وعبقرية الوافدين من الشرق الّذي كان يمثل قمّة التقدّم الفكري وذروة النهوض الحضاري في العالم آنذاك، مالبثوا أن انصهروا تحت أفياء هذه الحضارة، وجنوا ثمارها نعيما واستقرارا، وعلما وثقافة، وفنونا ومعرفة ورغد الحياة في أكثر أيّام حياتهم"[35]، وهو ما أعطى شخصية أندلسيّة تمتاز عن المغربيّة بخّفة الرّوح وحيوية العقل واستعداد طبيعي لتقبّل العلم. أمّا الجّانب الدّيني فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ المجتمع الأندلسي مجتمع محافظ متديّن، يحافظ على المبادئ والقيّم الّتي تضمنتّها الشّريعة الإسلامية السّمحاء، فيقول بن الخطيب: "أحوال هذا القطر في الدّين وصلاح العقائد أحوال سنيّة، والأهواء والنّحل فيهم معدومة، ومذهبهم على مذهب مالك بن أنس، إمام دار الهجرة جارية"[36]، وعليه فالأندلس خلت من أيّة دعوة خارجية أو إباحية أو باطنية، وظلّت تسبح في أرجاء الإسلام. هذا التّنوع والاختلاف أفرز عادات وتقاليد، عبّرت عن مستوى التّطور والتّحضر الّذي وصلت إليه الأندلس. ضف إلى ذلك الأعياد والاحتفالات الكثيرة والمتنوعة، بين دينية واجتماعية. فهي سمّة تكاد تميّز المجتمع الأندلسي عن غيره من المجتمعات الأخرى. فقد احتفل الأندلسيون المسلمون بعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الجمعة وعيد المولد النبوي الشريف وعاشوراء. كما احتفل النّصارى بعدّة أعياد منها: عيد النّيروز والمهرجان وعيد العصير؛ الّذي احتفلت به العامّة "فعادة أهل هذه المدينة الإنتقال إلى حلال العصير أوان إدراكه"[37]. وقد تميّزت أعيادهم بالاقتصاد في الإنفاق، فقد قال لسان الدّين بن الخطيب: "...وأعيادهم مائلة إلى الاقتصاد"[38]. أمّا إذا انتقلنا إلى الحديث عن المرأة الأندلسية، فنجد "حريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السّمن، وتنعّم الجسوم واسترسال الشّعور، ونقاء الثّغور، وطيب الشّذا، وخفّة الحركات، ونبل الكلام وحسن المحاورة، إلاّ أنّ الطول يندر فيهنّ، وقد بلغن في التّفنن في الزّينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المسبغات والتّنافس في الذّهبيات والدّيباجيّات والتّماجن في أشكال الحليّ إلى غاية بعيدة"[39] .

كما نجد المرأة الأندلسيّة قد تبوأت مكانا مرموقا، حيث أتيح لها مجالا كبيرا من الحريّة والثّقافة العالية. فقد أخبرت المصادر أنّ عددا من النّساء اشتهرت أسمائهنّ في ميادين السّياسة والعلم والأدب؛ نذكر منهنّ مريم أم إسماعيل الّتي كان لها يد في خلع محمّد الخامس. أمّا في الأدب فنجد حمدونة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونيّة وكانتا من شاعرات الأندلس. ومجمل القول في هذا أنّ المرأة الأندلسيّة لم تكن في معزل عن مجتمعها، فقد كانت لها بصمتها الواضحة في المجتمع الأندلسي، فهي لا تقلّ أهميّة عن أختها المشرقيّة.

وإلى جانب الحياة الاجتماعيّة نجد الحياة الاقتصادية. فلقد استطاع الأندلسيون منذ البداية أن يؤسسوا لمفهوم حضاري اقتصادي، وتصوّر منطقي عقلاني حول كيفية التّعايش والرقيّ، يقوم في أساسه على ضرورة قيام كل فرد بمسؤوليته وواجبه نحو وطنه. فكلّ واحد فيهم قائم بعمله مجتهد فيه، فحتّى المرأة أخذت على عاتقها المساهمة في البناء الاقتصادي، فلم يكن يخلو بيت واحد في الأندلس ومدنها من إتقان النّسيج والحياكة.

إنّ الاقتصاد الأندلسي اقتصاد قويّ، يعتمد على الزّراعة والصّناعة والتّجارة، فقد استفادت مملكة غرناطة من موقعها الاستراتيجي الهام المطلّ على البحر الأبيض المتوسط، في الصّيد والتّجارة، هذا فضلا على "أنّ طبيعة الأرض حوت الكّثير من الأودية والهضاب والسّهول

الخصبة. فنهر "تنيل" الّذي يعبر البلاد، ساعد على وجود بسائط خضراء تتخلّلها الترّع والقنوات، ويكثر فيها الخضار والأشجار المثمرة من كلّ نوع"[40]. وقد عدّد بن الخطيب في كتابه "اللّمحة البدريّة" بعض أصناف المنتوجات الزّراعية الّتي اشتهرت بها الأندلس، فكانت "فواكههم رغدة والعنب بحر لا نافذ كرومه الّتي ينالها الخرج على أربعة عشر ألفا لهذا العهد، وفواكههم اليّابسة عامة العام متعددة، يدّخرون العنب سلما من الفساد إلى ثلثي العام، إلى غيره من التّين والزّبيب والتّفاح والرّمان والقسطل والبّلوط والجوز واللّوز إلى غير ذلك، مما لا ينقطع مدده إلا بفضل يزهد في استعماله"[41]، إلى جانب هذا فقد إهتمّ أبناء المملكة بتربية الماشية، حيث أنشئوا مزارع تربية الخيول العربيّة الأصيلة، كما اهتموا بسائر أنواع الحيوانات كالنّحل والطيّور، فنجحوا بذلك في إقامة زراعة نشطة متعدّدة مختلفة. وذلك لتعدّد الخبرات البّشرية والتقاء الثّقافات الزّراعية. أمّا الصّناعة في الأندلس فقد تطوّرت وازدهرت لاستفادتها من الزّراعة الّتي وفرت لها المادة الخام، هذا فضلا عن غنى المملكة الغرناطية بثروات طبيعية باطنية كالحديد والنّحاس والرّصاص والذّهب والفضّة، وما إلى ذلك ممّا وفّرته البيئة لنشأة صناعة متطوّرة. فقد اشتهرت المملكة النّصرية بصناعة "الأسلحة كالسّيوف والخناجر والدّروع والرّماح...واهتم الحدّادون إلى جانب السّلاح بصناعة الصّناديق والسلاسل والأقفال والمزالج والمقصات والأواني المنزليّة المصنوعة من الحديد والنحاس"[42]، كما انتشرت صناعة الصّوف والحرير والأقمشة الملوّنة الممتازة،كما حضيّت صناعة الزّجاج بإعجاب الرّحالة الأجانب في ذلك الوقت. إنّ وفرت المنتوجات الزّراعية والصناعيّة كمًّا ونوعا شجع على قيام تجارة نشطة، ذلك أنّ تحضّر المجتمع الغرناطي واتّساعه وكثرة الأجناس فيه والأعراق، يقابله ازدياد في متطلّبات النّاس وحاجاتهم من سلع ومواد مختلفة ممّا يحتّم قيام تجارة داخلية وأخرى خارجية. فقد انتشرت الأسواق في المدن الأندلسية وتنوّعت، فانفردت كل حرفة بسوقها، فنجد سوق الحدّادين والنّجارين والعّطارين وغيرها، كما أخذت الدّولة على عاتقها مراقبة هاته الأسواق وتنظيمها. وقد نشطت المبادلات التّجارية في هذه الأسواق مستخدمين في ذلك النّقود الفضيّة والذّهبية بأنواعها، ويذكر بن الخطيب ذلك فيقول :"وصرفهم فضّة خالصة وذهب إبريز طيّب محفوظ لا تفضل سكّتهم سكّة"[43].

أمّا التّجارة الخارجيّة، فقد نشطت مع بلدان عدّة كبلدان المشرق وأوروبا، حيث تحدّثت بعض المصادر عن اتّفاقيات تجاريّة بين غرناطة ومملكتي "قشتالة" و"أرقوان" وبعض جمهوريات وإمارات "إيطاليا"، معاهدات تجاريّة متنوّعة بمقتضاها "كانت المراكب التّجارية تحمل الحرير الخّام من مدن المملكة إلى موانئ المتوسط في ايطاليا وفرنسا وأرقوان وإفريقيا، كما كان السكّر يغلّف ويوضع داخل صناديق قبل تصديره إلى الإمارات الإسبانيّة والبلدان المتوسطيّة القريبة ... والمعادن المصنّعة والعطور والحليّ والزّعفران والرّخام"[44]. وكانت المملكة تستورد الأرز من "بلنسية" والزّيت من "قشتالة"، والقمح من بلاد المغرب والرّصاص والنّحاس من "أرقوان" و"ايطاليا". وقد ساعد موقع الجغرافي للأندلس ومملكة غرناطة تحديدا على رواج تجارتها الخارجيّة، فهو يشكّل حلقة وصل، إذ كانت ملتصقة بالعالم الأوروبي والعالم الإسلامي .

لقد سطّر المجتمع الأندلسي في مملكة غرناطة أروع الأمثال على إعانة الدّولة على الصّمود في وجه العدوّ،

من خلال عملهم في مختلف الأعمال، ودفعهم للضرائب العامّة من خراج وأموال الزّكاة"، فقد كانت أخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة"[45]، فكانوا يؤدّونها بروح راضية للدّولة تأمينا لصمودها في وجه العدوّ.

4. الحياة الفكرية والأدبية: لقد شهدت غرناطة في ظلّ بني الأحمر حركة فكرية وثقافية واسعة النّطاق، فما إن توطّدت دعائمها واستقرّ أمرها ودبّت الحياة في أركانها، حتّى استعادت هذه الحركة قوّتها وأخذت في الثّبات والاستقرار. ولقد بلغت ذروة مجدها في الرّقيّ والازدهار والنّضج والوّعي الكبير على وجه أخص في النّصف الثّاني من القرن الثّامن على عهد الغنيّ بالله النّصري ﴿775هـ-793هـ/1374م-1392م﴾، الّذي تميّزت فترة حكمه بهدوء نسبي،كان له عظيم الأثر في إذكاء شعلة العلوم والأدب. ثمّ إنّ طبيعة حكام بنّي نصر الّذين يحتفون بالعلم وأهله شكّلت حافزا كبيرا للشّعراء والأدباء والعلماء والفقهاء، وأوجدت بيئة مناسبة للنّبوغ والبروز. فلقد عكف سلاطين بني الأحمر على إحياء المجد الّذي كان "لقرطبة" و"اشبيلية" و"بلنسية" وغيرها من المدن الأندلسية الزّاهرة، فكانوا يرعون العلم ويعتنون بأهله ويقدرون الشّعر ويحسنون سماعه. بل هو مبعث راحتهم واطمئنانهم، فكان معظم السّلاطين في طليعة العلماء والأدباء بما تميّزوا به من سّعة الإطّلاع وحبّ العلم واستقبال الشّعراء في قصورهم.

فقد كان محمد الثّاني ثاني ملـوك بني نصر ﴿ت701هـ/1302م﴾ الملّقب بالفقيه لعلمه وتقواه ولانتحاله طلب العلم أيّام أبيه، ولاشتغاله بالعلم زمنا في صباه، وكما قال ابن الخطيب: "فقد أربي على والده بخلال، براعة الخط وحسن التّوقيع وإيثار العلماء من الأطباء والمنّجمين والحكماء والكتّاب والشّعراء، وقرض الأبيات من الشّعر، وكثرة الملح وحرارة النّادرة"[46]. وأمّا ثالث سلاطينهم محمّد بن محمد بن نصر ﴿ت710هـ/1311م﴾، فكان كثير القراءة عالما بالشّعر، "كان يقرض الشّعر ويصغي إليه، ويثيب عليه، فيجيز الشّعراء، ويرضخ للنّدماء ويعرف مقادير العلماء ويواكل الأشراف والرؤساء"[47]، وكذلك كان السّلطان أبو الجيوش نصر ﴿ت722هـ/1322م﴾ عالما بارعا في الرياضيات والفلك، كما نجد أبو الوليد ﴿ت725هـ/1325م﴾ أديبا ناقدا وأيضا شاعرا ذواقا. وهذا دأب سلاطين بني الأحمر في تشجيع العلم والعلماء، فقد بنو المنشئات العلمية، من مساجد ومدارس ومكتبات وعلى رأسها المدرسّة النّاصريّة أو اليّوسفيّة نسبة إلى السّلطان أبي الحجّاج يوسف، الّتي أنشأت على يد الحاجب رضوان عام﴿750هـ/1348م﴾، فكانت من مفاخر غرناطة، حيث درّست فيها مختلف أنواع العلوم أنذاك "وقصدها الطّلاب من المناطق النّصرية كافّة، وقد نالت شهرة واسعة مما جعل أبناء المغرب طلابا ومعلمين يفدون للإنتساب إليها"[48]، وقد نضم ابن الجيّاب أبيات رائعة في هذه المدرسة، كتبت على بابها مشيدا بها[49] :

يا طالب العلم هذا بابه فتحـــــا
فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
واشكر مجيرك في حلّ ومرتحـــل
إذ قرب الله من مرماك ما نزحـــــــا
وشرفت حضرة الإسلام مدرســـة
بها سبيل الهدى والعلم قد وضحـــا
أعمال يوسف مولانا ونيّتـــــــه
قد طرزت صحفا ميزانها رجحـــــا

وهكذا استمرّ التّنافس في مختلف حقول العلوم من هندسة ورياضيات وفلك وطب وغير ذلك. فقد نبغ أبو يحي بن رضوان ﴿ت757هـ/1356م﴾ في علم الفلك الّذي وضع قصيدة فيه بعنوان: (المنظوم في علم النّجوم)، أمّا الأطباء فقد كثر عددهم، واشتّهر بعضهم في المشرق والمغرب، فمنهم طبيب محمد الثاني الخّاص محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بابن السراج، والطّبيب يحي بن هزيل التّجيبي أستاذ ابن الخطيب، والطّبيب الشّاعر والمؤرخ أحمد بن علي بن محمد بن خاتمه الأنصاري ﴿ت770هـ/1369م﴾، ألّف كتابا في الوباء الّذي عصف بالأندلس سنة ﴿749هـ/1347م﴾ بعنوان: (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)، وقد وضع ابن الخطيب عددا من المصنّفات في الطّب بلغ العشرة منها عمل، من (طب لمن حب)،(رسالة تكوين الجنين) و(مقنعة السائل في المرض الهائل). وعلى العموم "فإن الطّب أيّام بني الأحمر وصل إلى درجة عالية من التّقدم والتّطور، ويكفي أن نذكر من أجل الاقتناع بعض أعمال محمد الأول الّذي أنشأ دارا للعجزة، ومأوى للعميان. ومحمد الخامس الّذي بني "البيمارستان"[50].

كما نبغ في غرناطة نفر غير قليل من المشتغلين بالرياضيات والكيمياء والنّبات وغيرها فمن علماء الرّياضيات " نذكر: أحمد بن محمد التجيبي ﴿ت703هـ/1304م﴾، الّذي كان له مشاركة في العدد والتّكسير، وأبا الحسن علي بن محمد القرشي البسطي القلصادي ﴿ت891هـ/1486م﴾، ومن مؤلفاته (كشف الجلباب عن علم الحساب)و(قانون الحساب)و(رسالة في الجبر)"[51].

أمّا علم النّبات فقد ظهر فيه علماء كثيرون حيث قاموا بوضع العديد من المؤلفات، نذكر منهم: محمد بن فرج القربلياني الملّقب بالشّفرة ﴿ت761هـ/1360م﴾، فلقد كانت لديه حديقة نباتية في "واد آش" خصصها لجمع النّباتات النّادرة والعجيبة لدراستها. إلى جانب هذا علم الكيمياء الّذي لقي إهتماما عند الغرناطيين" ولعلّ أكبر دليل على هذا الأمر، معرفتهم لمدفع البارود وتوصّلهم لمعرفة بعض العمليات الكيمائية، مثل التّصعيد والتّقطير والتّخمير والتّكليس والتّحليل"[52]. واشتهر في التّاريخ أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمه الأنصاري ﴿ت770هـ/1369﴾، وقد ترك عن مدينته كتابا بعنوان (مزية المرية عن غيرها من البلاد الأندلسية)، وأبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، ولد "بمالقه" سنة ﴿713هـ/1314م﴾ له كتاب (نزهة البصائر والأبصار) في تاريخ الدولة النّاصرية وتاريخ (قضاة الأندلس). كما وضع لسان الدّين بن الخطيب ﴿713هـ-ت776هـ/1314م-1374م﴾، هو الآخر مؤلفات عدّة في التّاريخ أبرزها: (اللّمحة البدرية في الدولة النّصرية)،(الإحاطة في أخبار غرناطة)،(رقم الحلل في نضم الدّول).

هذا ولم يكن الأندلسيون في العهد النّصري بمنأى عن الحركة الأدبية في العالم العربي، فقد ظلّت هذه الأخيرة من أبرز وجوه الحركة الفكرية في مملكة غرناطة، حيث حفل العصر بأسماء كثيرة من الأدباء الّذين عملوا على تطويرها وإغناء مختلف جوانبها، حتّى وصلت ذروة ازدهارها، وأوّج نضجها وكمالها، كما نشطت حركة التّأليف. فألفوا في اللّغويات عديد المصّنفات نذكر منها :(الكتاب المفضوض عن خلاصة علم العروض) لصاحبه أبو بكر محمد بن إدريس الفرائي القضاعي

﴿ت707هـ/1307م﴾، وكتاب: (صلة الصلة) الّذي ألّفه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزّبير النّحوي ﴿ت708هـ/1308م﴾، وكتاب: (وصف نفائس اللآلي ووصف عرائس المعالي) في النّحو لصاحبه أحمد بن الحسين بن علي الزّيات الكّلاعي من "بلش" "مالقة" ﴿ت728هـ/1328م﴾، وكتاب:(شرح على الخلاصة في النحو) لصاحبه إبراهيم بن موسى اللّخمي الغرناطي، وشيخ النّحاة الأندلسيّين في عصره أبو عبد الله محمد بن علي الفخار الألبيري، الّذي تتلمذ على يده ابن الخطيب وابن زمرك ﴿ت754هـ/1352م﴾.

أمّا الشّعر فقد نبغ في قرضه الغرناطيون، وبتصفح كتب التّراجم الخاصّة بهذا العصر، يسترعي الانتباه أنّنا لا نجد شاعرا متخصصّا للشّعر دون سواه من الفنون الأخرى. فقد كان الواحد فيهم شاعرا وناثرا ومؤرخا. فهذا ابن الخطيب الّذي تفتحت موهبته الشّعرية مبكرا، فجادت قريحته بقصائد ذات أغراض متنوعة، لا سيما في المدح والسّياسة والموشّح[53]. وعنه يقول ابن خلدون "كان أية من آيات الله في النّظم والنّثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يهتدي فيها بمثل مداه"[54]. جمع أكثر قصائده في:(ديوان الصيد)و(الجهام والماضي)و(الكهام) كما وضع ابن الخطيب كتاب:(الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة) وكتاب:(السحر والشعر). ويقابله كذلك ابن زمرك ﴿ت795هـ/ 1393م﴾، تلميذ ابن الخطيب وخليفته في الوزارة ترك قصائد في المدح والغزل والوصف، كما برع في الموشّحات وقد جمعها الأمير الشّاعر إسماعيل بن الأحمر حفيد محمد الخامس في كتاب:(البقية والمدرك من شعر ابن زمرك)[55]. كما نجد أبو جعفر أحمد بن خاتمه الأنصاري الاليري له قصائد جمعها تلميذه أبو جعفر ابن زرقلة في: (كتاب خائق التحلية في خائق التروية)، وكذلك الشّاعر محمد الشّريف الغرناطي الحسني ﴿ت720هـ/1320م﴾ صاحب ديوان: (جهد المقل).

إلى جانب هذا مثّل "فنّ المقامة" نوعا آخر من الفن الأندلسي، حيث إشتهر الأندلسيّيون في كتابة هذا النّوع حتّى سقوط غرناطة، حيث ظهر الكثير من كتاب المقامات، منهم ابن الخطيب الّذي كتب: (خطرة الطّيف ورحلة الشّتاء والصّيف) يصف فيها رحلة تفتيشيّة رفقة السّلطان أبي الحجّاج يوسف الأول، وكذا مقامة: (معيار الاختبار في ذكر المعاهد والدّيار) يصف فيها أهمّ مدن المغرب الأقصى وأربعة وثلاثين مدينة غرناطية زارها. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى أبو الحسن النباهي، الّذي وضع مقالة بعنوان: (النّخيليّة) وهي عبارة عن جدال بين نخلة وكرمة. وقد كان للفقهاء منزلة عظيمة لدى أهل غرناطة ومقام سامي وكلمة مسموعة، إلى جانب التّأثير القوّي على رجالات الحكم. فقد لمع اسم العالم الفقيه أبي سعيد فرج بن لب، وهو من أشهر أساتذة المدرسة النّصرية ومن تلاميذه إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي ﴿ت790هـ/1388م﴾، صاحب كتاب:(أصول الفقه)، وكتاب:(أشرف المسالك إلى مذهب مالك) لعلي بن محمد بن غلي القرشي القلصادي ﴿ت791هـ/1389م﴾، و(القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية) لأبي القاسم بن جزي الكلبي، وأرجوزة أبي بكر بن عاصم المسمّاة: (نهج الوصول في علم الأصول).

وبعد هذا العرض للعلوم الّتي كانت موجودة في غرناطة أنّها على الرّغم من عمق مأساتها ومعاناتها والحروب الخارجية، إلاّ أنّ الغرناطيين استطاعوا أن يحققوا معادلة

الحضارة الإنسانيّة شكلا ومضمونا، وما تزال معالم هذا التّأثير واضحة جليّة في الفكر الإنساني. وقد رأينا كيف احتضنتها مملكة غرناطة في ظل الدّولة النّصرية ورفعت لواءها عاليا لتقدمها للإنسانية كنزا ثمينا.

5.خاتمة:

إن فترة بني الأحمر كانت جزء مهم من تاريخ الأندلس ولم تنفصل البتّة عن حيثيات واقعه، فقد ارتبطت به، وعنه عبّرت، حيث ساهم في إذكاءها ذلك الجوّ الاجتماعي السّائد من سياسة وثقافة وفكر. فسياسة بني الأحمر اتّسمت بالتّغير والمراوغة، حيث يلجئون إلى المهادنة والمصالحة حينا، وإلى الحرب والغزو حينا آخر، وهذا نّتيجة للظّروف القاسيّة الّتي كانت تمرّ بها الأندلس آنذاك من تكالب نصراني، واضطراب عنيف داخل القصر النّصري . إضافة إلى التغيّر المستمر في المشهد السّياسي، حيث تعاقب على غرناطة عدّة ملوك ذو نزعات سياسيّة مختلفة. أمّا على الصّعيد الاجتماعي والاقتصادي، فقد كانت الأندلس موطن لعدّيد الأجناس البشرية ذوي عقائد وعادات مختلفة، من عرب وبربر وصقالبة، ويهود ونصارى ، ويمثّل العرب الغالبيّة العظمى .وقد أفرز هذا التّنوع في البنية الاجتماعية، عادات وتقاليد مختلفة عبّرت عن مستوى التّطور والتّحضر الّذي وصلت إليه الأندلس في مختلف المجالات.

يجبعلىالمؤلفأنيلتزمبالتوجيهاتوالإرشاداتالموجودةفيهذهالوثيقة عندكتابةالمقالة،لايغيرحجمالخطأوالمسافةبينالأسطرلزيادةأ وإدخالمزيدمنالنصوص.

6.المصادروالمراجع:

1- أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، دط، مصر، دت.

2- إسماعيل سامعي، تاريخ الأندلس الإقتصادي والإجتماعي، مكتبة إقرأ، قسنطينة، ط1، الجزائر، 2007.

3- عيسى خليل محسن، أمراء الشعر الأندلسي، دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، عمّان، الأردن، 2007.

4- لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ، ط 3، د ب، 1980.

5- مجهول المؤلف، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق رضوان الداية، دن، دب، ط2، 2002.

6- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي.

7- محمد سعيد الدغلي، الحياة الإجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة ، ط1، الأردن، 1984.

8- يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر،دار الجبل، ط 1، لبنان، 1993.

9- بن عيسى بوزيان، الحياة السياسية والأدبية في الأندلس في عصر بني الأحمر، مجلة الفيصل، العدد: 117، 1986.

7. الهوامش:

[1]– بن عيسى بوزيان: الحياة السياسية والأدبية في الأندلس في عصر بني الأحمر، مجلة الفيصل، العدد: 117، 1986،ص:56.

[2] – أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر،مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، د ت، ص:29.

[3] – لسان الدين ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، د ب، ط 3، 1980، ص:47.

[4] – المصدر نفسه، ص:43.

[5] – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحي الرميمي من بني أمية. ينظر: أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:31.

[6] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية ،ص:48.

[7] – دامت عشرين سنة بين فرناندو الثالث وابن الأحمر. ينظر: أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:31.

[8] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:50.

[9] – ففي عهده تحالف كل من فرناندو الرابع وخايمي الثاني ملك أرجوانة على غزو غرناطة في وقت واحد . ينظر: أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:34.

[10] – كان أعمى لمواصلة السهر ومباشرة أنوار ضخام الشمع. ينظر: أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة، ص:34.

[11] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:70.

[12] – المصدر نفسه، ص:70.

[13] – أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:35.

[14] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:78.

[15] – أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:39.

[16] – كان ذلك في معركة "طريف"في7جمادى الأولى عام 741 هـ، وتسمى أيضا معركة "الصلاد". ينظر: أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:40.

[17] – يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر،دار الجبل، لبنان، ط 1، 1993، ص:37.

[18] – عقد محمد الخامس حلف مع فرناندو الأول والسلطان العربي عبد العزيز بن الحسن المريني، خلص الاتفاق إلى هجوم ملك المغرب على قشتالة جهة غاليزيا شمالا، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء جنوبا بمعاونة أسطول المغرب .ينظر:أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:42.

[19] – مجهول المؤلف: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق رضوان الداية، د ن، د ب، ط2، 2002، ص:59.

[20] – "اللسانة ": مدينة صغيرة حصينة تقع في الجنوب الشرقي في مدينة قرطبة. ينظر: مجهول المؤلف: نبذة العصر، ص:62.

[21] – مجهول المؤلف: نبذة العصر ، ص:88 .

[22] – أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص:45.

[23] – مجهول المؤلف: نبذة العصر، ص:104.

[24] – تضمنت هذه المعاهدة عدة بنود منها :إطلاق سراح الأسرى المسلمين في قشتالة، وضمان الأمن والحرية لهم في ممارسة عقائدهم .ينظر: يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:53.

[25]– يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:92.

[26] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:26.

[27] – محمد سعيد الدغلي: الحياة الإجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة ، الأردن، ط1، 1984، ص:15.

[28] – إسماعيل سامعي: تاريخ الأندلس الإقتصادي والإجتماعي، مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2007، ص:107.

[29] – يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:90.

[30] – المرجع نفسه، ص:92.

[31] – المرجع نفسه، ص:94.

[32] – محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص:24.

[33]– يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر،ص:97.

[34] – المرجع نفسه، ص:98.

[35] – عيسى خليل محسن: أمراء الشعر الأندلسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2007، ص:49.

[36] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية ،ص:38.

[37]– المصدر نفسه، ص:40.

[38] – المصدر نفسه، ص:40.

[39] – المصدر نفسه، ص:41.

[40] – يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:199.

[41] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:40.

[42] – يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:123.

[43] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:40.

[44] – يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:127.

[45] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:38.

[46]– ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص:50.

[47]– المصدر نفسه، ص:61.

[48]– يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص:134.

[49] – المرجع نفسه، ص:135.

[50] –البيمارستان: هو مبنى مستطيل الشكل يتكون من طابقين,له فناء رئيسي، به بركة كبيرة تزينها نافورات الماء الذي يتدفق من أسدين من الرخام، ويحيط بهذا الفناء

أروقة من طابقين. أنشأه محمد الخامس في727 هـ– 728 هـ.ينظر:أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:136.

[51] – أحمد محمد الطوخي:مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:370 .

[52] – المرجع نفسه، ص:370.

[53] –"جيش التوشيح" من أبرز الكتب التي ألفها بن الخطيب في فن الموشحات ضمنه 165موشحا ل16 وشاحا .

[54] –عيسى خليل محسن: أمراء الشعر الأندلسي، ص:298.

[55] – أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص:355.